الحوارات النظرية في علم العلاقات الدولية

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى أصبحت الحاجة ملحة لوضع هيكل للسلم والأمن الدوليين والبحث عن السبل الكفيلة لتحقيق ذلك، فقام الباحثون بافتتاح الأقسام الأولى للدراسات الدولية وذلك محاولة منهم لإيجاد الوسائل الناجحة لضمان وترقية الأمن والسلم بين الأمم وبناء علم العلاقات الدولية، وبناءا على ذلك شهد تاريخ دراسة العلاقات الدولية قيام أربع حوارات أساسية بين المهتمين والباحثين في هذا الحقل الدراسي، يمكن تلخيصها فيما يلي:

1- الحوار النظري الأول

جاء هذا الحوار مع تفوق الواقعية على الليبرالية الدولية بعد الحرب العالمية الثانية (التيار المثالي) لأنهم يعتقدون بإمكانية تحقق القانون والديمقراطية، وضبط علاقات القوة، كحجة لتبرير هذا التفوق، وجاء مصطلح الفوضى Anarchy وفق تصور هوبسي للحرب، حيث أن الفوضى هي السبب في الحرب، حسب المفكر البريطاني G.Lowes Dickinson الذي يعد أول من استخدم المصطلح.

فقد أكد تطور العلاقات الدولية في فترة ما بين الحربين محدودية القدرة التفسيرية للنظرية المثالية (الليبرالية الدولية) بمعنى عدم قدرة القانون الدولي ضبط علاقات القوة، وعدم قدرة الديمقراطيات احتواء توسع الديكتاتوريات.

كما أن الوضع الدولي بعد الحرب العالمية الثانية أعطى مصداقية أكثر لمسلمات الواقعية، وهو ما عبرت عنه أحداث الحرب الباردة، التي أكدت أن السياسة الدولية هي سياسة القوة. لكن هذا التفسير غير كاف، فقد عادت المثالية للظهور بأشكال مختلفة (النظرية الليبرالية).

فتفوق الواقعية في مراحلها الأولى يرجع أساسا إلى دور الولايات المتحدة، التي تحولت من خطاب أخلاقي وسياسة انعزالية بين الحربين إلى سياسة تدخلية بعد الح ع ث.

2- الحوار النظري الثاني

هو الحوار ما بين النماذج Inter-paradigmatic وقد كان قائما بين أنصار المقاربة الكلاسيكية (التقليدية) وأنصار المنهج الأمريكي أو الكمي (السلوكية) خلال مرحلة 1950-1960، وهو نقاش ذو طبيعة منهجية وابستيمولوجية، حيث يعتقد السلوكيون أن نفس المناهج التي كشفت عن خبايا الذرة بإمكانها أن تكشف أيضا

على ديناميكية السلوك المجتمعي، ويشجعون على استخدام الاحصاء وتكنلوجيا الحاسوب وانفتاح حقل العلاقات الدولية على العلوم الأخرى.

وتم إدخال السلوكية في العلاقات الدولية من قبل مشروع صناعة القرار لمقاربة دراسة السياسات الدولية ل "ريشارد سنايدر" وزملائه "سابين، وبروك". وعموما فقد خلفت السلوكية ثورة فكرية ومعرفية مع استخدامها لمقاربات متعددة الحقول واكتشاف وحدات تحليل جديدة مثل النظام، الادراك،... وتشكيل حقول فرعية Inter-champs للبحث مثل تحليل السياسة الخارجية، إلا أنها لم تضع حدا للمنهج التقليدي.

فالتقليديون أعضاء المدرسة الانجليزية في بريطانيا أو الفرنسية مع "ريمون آرون" استطاعوا جعل صوتهم مسموعا خلال الثورة السلوكية رغم هيمنتها، واعترف السلوكيون أنه من الوهمي الاكتفاء فقط بالمعطيات الموضوعية. فالامبريقية لها حدودها.

هذا الحوار انتهى بنهاية سنوات 1970 بسبب تعايش أنصار المنهج التقليدي والمنهج الإمبريقي (العلمي السلوكي). وتأكدت إخفاقات العديد من مسلمات الواقعية مع نهاية 1960، فقد فشلت الولايات المتحدة في الحرب الفيتنامية، وجاءت إشكالية الدور العسكري الذي يمثل معيار القوة عند الواقعيين (انهزام قوة عظمى أمام حرب العصابات الفيتنامية) بالاضافة إلى نمو دول أوربا واليابان رغم وضع حد لنظام الصرف الثابت ل"بروتن وودز" فإذا كان الاقتصاد لا يلعب إلا دورا ثانويا في العلاقات الدولية، فكيف لهذا الحدث أن يؤثر على السياسة الدولية وعلى النظرية؟ وأخيرا الانقلاب على حكومة "ألاند" في الشيلي ومجيء حكومة "بينوشيه 1970-1973"والدور الكبير لوكالة الاستخبارات الأمريكية من جهة والشركات المتعددة الجنسيات من جهة أخرى في هذا الحدث، يشير إلى أهمية الفواعل غير الدولاتية وتفاعل السياسة الداخلية مع السياسة الخارجية، وهو ما يفند مسلمة أن الدولة هي الفاعل المركزي في العلاقات الدولية.

ومن هنا تظهر نقائص قدرة الواقعية لتفسير السياسة الدولية، وهو ما أدى إلى بروز مقاربتين، الأولى عبر وطنية transnational وتعرف أيضا ب"التعددية" ل"جوزيف ناي" و"جون بورتن" و"روبرت كيوهان" والثانية تشمل المقاربات الماركسية والتي توصف ب"البنيوية" structualit تدور حول مدرسة التبعية.

3- الحوار النظري الثالث

هي مواجهة تتعلق بموضوع العلاقات الدولية (كعلم)، فبينما يختصر الواقعيون تحليل العلاقات الدولية السياسية بين الدول، يقوم أنصار الاتجاه عبر القومي بتوسيع العلاقات الدولية إلى مجموعة التفاعلات فوق الحدود transfrontalieres سواء كانت من عمل الدولة أم لا، أما الماركسيون فيركزون على العلاقات بين الطبقات.

لقد طرح هؤلاء الباحثون سؤالا أساسيا هو: من هي الفواعل الدولية الرئيسية؟ إلى جانب أسئلة أخرى، مثل ماهي التحديات الدولية الرئيسية؟ ماهي المسارات والنتائج الرئيسية؟

ما يمكن قوله أن هناك تعايشا بين هذه المقاربات والتي هي تكاملية أكثر من تنافسية، وهو ما يدل على وجود ثراء معرفي- نظري يشير إلى وجود علاقات دولية مختلفة. هذه الاتجاهات الثلاثة أصبحت فيما بعد غير متماثلة، ففي بداية 1980 شن "كينث والتز" هجوما ضد الواقعيين الجدد للتعبير عن تفوق الواقعية، وساعده في ذلك عودة الحرب الباردة. وشهدت المرحلة عودة المركزية statu- centrisme النقاش النيو واقعي والنيو ليبرالي وهو الحوار الذي سيطر على الحقل طوال سنوات 1980 في الولايات المتحدة، ونفس الشيء بالنسبة للماركسيين الذين تراجع دورهم بسقوط حائط برلين.

بعد نصف قرن، عرفت كل من الواقعية والليبرالية في صورتها الجديدة "النيو" مراجعة بسبب اشتراكهما في نفس المسلمات الانتولوجية للخيار العقلاني، ويبدو أن هذا "النيو-نيو" هو مايفسر عدم قدرة علم العلاقات الدولية التنبؤ بنهاية الحرب الباردة، مما أدى إلى ظهور مقاربات جديدة أدخلت إشكالية جديدة مفادها هل من الممكن تكوين معرفة علمية في العلاقات الدولية.

4- الحوار النظري الرابع

أدخل هذا النقاش العلاقات الدولية في مرحلو ما بعد الوضعية post-positiviste ففي مرحلة جمع بين كل من الوضعيين ومابعد الوضعيين،(حسب كيوهان العقلانيين rationalistes والمتمعنين reflexivistes

يجمع الأولون النيو- واقعيين والنيو- ليبراليين لسنوات 1980 المشاركين في الحوار الثالث ما بين النماذج، والذين يشتركون في نفس الفرضيات الأربعة حول الممارسة العلمية:

- لا يوجد إلا منهج واحد قابل للتطبيق في نفس الوقت على العلوم الطبيعية والاجتماعية.

- من الممكن التمييز بين الأحداث والقيم الحيادية، مقارنة مع الفرضيات التي تدرسها.

- يوجد انتظام في العالم الاجتماعي، يمكن اكتشافه بفعل النظريات الاجتماعية.

- من الممكن تحديد مصداقية التفسيرات النظرية بفعل مواجهتها للأحداث الامريقية.

هذه هي الفرضيات التي تم إعادة النظر فيها من قبل مجموعة من المنظرين لما بعد الوضعيين. فحسب المنظرين النقديين المتأثرين ب"غرامشي" ومدرسة "فراكفورت" وصولا إلى منظري ما بعد الحداثة ك "ميشال فوكو" و"جاك دريدا" وصولا إلى المدرسة النسوية، فإن الواقع لا يوجد خارج النظرية، وهي بدورها تساهم في بناء وإعادة بناء وتحويل الواقع الذي تدرسه، كما أنه لا وجود لمعيار نظري عالمي يستطيع الحكم على مدى مصداقية العلمية.

في الأخير يمكن القول أن العلاقات الدولية تدور حول ثلاثة نماذج هي المهيمنة في علم العلاقات الدولية والتي تشمل: الواقعية، الليبرالية، البنائية، كما أنه لا توجد نظرية واحدة في العلاقات الدولية بل نظريات متعددة. فعلم العلاقات الدولية حقل علمي حديث له موضوعه ومنهجه وهدفه.